الشعر الحديث بعد ربع قرن

بقلم الدكتور جهاد الخياط

يرجع بعض الكتاب بداية التجديد في الشعر الى محاولات قديمة وعهود بعيدة : يذكرون أبا العتاهية الذي آحب ان يكون اكبر من العروض ، وأبا نواس الذي نظم ابياتا لا قافية لها ، وأبا تمام الذي دعم شعره بالمنطق والعقل والاسطورة والمحسنات البديعية ، ويتحدثون عن الموشحات الاندلسية وتنويعها للقوافي ، مرورا بالسنين وعبر العصور المتعاقبة ، حتى البند في الفترة المظلمة ، ويبهرهم شعر المهاجر ، ويعددون اعمالا شعرية لباكثير ومحمد فريد وجدي وعبد الرحمن شكري والعقاد والمازني واحمد زكي ابي شادي ونزار قباني ... الخ ، ويمكن ان نجد شيئا من الواقع والحقيقة في هذه الآراء ، فهؤلاء الشعراء وآخرون اسهموا ، بنسب متفاوتة ، في ايجاد اساليب شعرية غير مألوفة ، ولكننا نعتمد سنة ١٩٤٧ بداية تاريخية للشعر الحديث ، فتشكيلات نازك والسياب الشعرية ببهتا الى لون جديد من النظم توالت بعده قصائد مماثلة كثيرة من شعراء متعددين ، كتبت عنها مقالات وبحوث ومؤلفات ، وقامت حولها معارك ومناقشات مفتعلة في اكثرها ، ولم تهدأ ، وهذا المقال مراجعة سريعة واعادة نظر في الشعر الحديث بعد ربع قرن .

من المعروف ان الشعر الحديث يستمد أصوله من العروض القديم ، فهو ليس خارجا عليه ، ولكنه يلغي نظام الشطرين والقافية الواحدة ولا يلتزم بعدد معين من التفعيلات ، فلم تعد الابيات امثالا وحكما وأقوالا مختصرة تطوي في كلمات قليلة تجاريب يمكن عرضها في دواوين واعمال كاملة ، واقتربت القصيدة الحديثة من وحدة الموضوع التي دعا اليها ارسطو قديما ، ولم تنحصر بالاغراض الشعرية التقليدية المبوبة كالمديح والهجاء والغزل والرثاء .. الخ ، وهذه امور طبيعية فرضتها اهواء العصر ، لا تستأهل اكداسا من المقالات والبحوث ، شرحا وتفصيلا ، ولا تستحق معارك وخصومات وتهريجا ومواقف ، وهي ليست من الخوارق والمعجزات !

فلماذا نعيق الشعراء ، اصحاب الطرق القديمة والحديثة ، عن حرية التعبير ، ما دامت مواهبهم وقدراتهم الثقافية تفرض عليهم أساليب النظم ، ونعود ونطالبهم بقوالب ثابتة لا يرتضونها ونسد الابواب امام محاولات التجديد والنماء والابتكار والخلق ، ونحن نمر بدور يتسم بالتطور السريع ونطمح الى مكان لائق تحت الشمس ، ومتى رضخ الفن لاهواء شخصية اعتباطية سائبة ، واللاقاعدة مبتغى الابداع فيه ، دون ان يتحول الى نوع من الفوضى والارباك ؟

والرأي القائل بأن الطرق الحديثة في النظم تحاول ان تطمس معالم الشعر العربي العمودي ، الى آي مدى يصح لدينا ؟ وهل تاثرت منزلة النابغة وابي نواس والمتنبي وابي العلاء وغيرهم من الشعراء القدامى ، بعد الف سنة واكثر ، بظهور شاعر كالسياب او كعبد الوهاب البياتي ؟ ولم قامت هذه المناقشات والمعارك ؟!

يبدو لي ان الكثيرين يطيب لهم ان يحولوا القضايا الفكرية او الفنية الى مسائل شخصية صرف ! فمن يحب شعر ابي تمام يعتبر اطراء شعر البحتري اهانة شخصية له ! ومن يتذوق الشعر الحديث يحس بالاندحار آذا صفقت الاكف لابيات من الشعر القديم ، وهكذا ! او ان الفراغ الفكري والعاطفي واقتناص الموضوعات للكتابة ادى الى هذه المناقشات الحادة المتطرفة بين القديم والحديث ، وما اكثر الذين يفتعلون المواقف تعجلا للشهرة وتأكيدا للذات ، والغيرة الطفولية من نجاح يصيب هذا وذاك قائمة بوضوح ، وكل هذه الامور خارجة عن طبيعة الفن ومعيقة لتطور الشعر الذي يحاول الكتاب المخلصون ان يكون معاصرا في اهدافه وموضوعاته ، ومعبرا عن الانسان العربي بشمولية وعالمية .

وبعد هذه السنين من المناقشات لم يعد مكان للكلام عن التجديد والتقليد ، فالشعر الحديث ليس ثورة على القديم ، ولكنه تشكيل جديد للعروض ، ودليل حيوي على قابلية الشعر العمودي للتجدد والتحول ، وموقف وأسلوب وتعبير عن العصر وهموم الاجيال الجديدة وتطلعاتها الى حياة افضل . ومن الخطل ان نفرض على الشعراء ان يحيوا بأفكار اجدادهم ، فهذا تشويه للاثنين ، وان يقتبسوا من أشعارهم المعاني والتشبيهات المعروفة ليرضى عنهم السدنة الحفاظ على التخلف والاوصياء المتحجرون الذين يشكلون اكبر عائق لتطور الشعر العربي ونمائه ، فلنكف ـ اذن ـ عن المهاترات التي قامت حول الشعر القديم والحديث ، ونحل مكانها النظرات النقدية البناءة ، فالزمنية ليست « تقييما » ادبيا ، والشعر الجيد والرديء يتوافر في النماذج القديمة والحديثة وفي قديم الحديث وفي حديث الجديد وعند الشباب والكهول والعموديين والافقيين ، ولا داعي للخوف والفزع من ترتيب حديث للقوافي والتفعيلات ، وقصائد قديمة خالدة وتبقى ، وقد تحمل قصيدة حديثة معها بذور فنائها او تثبت ان

للاسلوب الجديد ارضية وأصالة وانطلاقا نحو عالمية ارحب ، ولم يكن وقت نظم قصيدة حكما على شاعريتها وبقائها ، والشعر المبدع لا يعرف زمنا معينا او اسلوبا خاصا ، قال بهذا نقاد قدماء ، ومنهم ابن قتيبة ، ولكننا ما زلنا نشغل انفسنا بالجدل العقيم ، والمناقشات غير المجدية ، فالحديث عن الشعر طفى على الشعر اكداسا ، والكلام على النقد ونقد النقد فاق ما عندنا من دراسات نقدية حقيقية ، وهكذا اعتدنا ان نتناسى قضايانا الجادة باغراقنا في التعليق على هوامشها ،وانفعالنا بآرائنا حولها ، وانبهارنا واعجابنا بأنفسنا ، واضعين كراماتنا على طاولة البحث ، حاملينها معنا صباح مساء ، محولين مسألة عامة الى شخصية خاصة بحساسية مفرطة تنسينا الموضوع الذي نبحثه ، في حين ان الدراسة الموضوعية امر يجب ان يبعدنا عن أي كسب شخصي او فرض موقف عقيم .

يرى اصحاب القديم ان الشعر الحديث نوع من الهذر ، ويرى المحدثون ان الشعر القديم علامة تخلف ، وهذه الاحكام ليست نقدية ولا موضوعية ، وهي اقرب الى العصبية وسوء القصد والاخلاقية السائبة ، وعليه ندعو الطرفين ـ بعد ربع قرن ـ الى شيء من الخجل والى احلال الدراسات الجادة محل الهوس والانفعال ، وجعل حرية الآراء النقدية بمنأى عن الكرامات الشخصية البعيدة عن الموضوع .

ويرى قسم من المحدثين ان الشعر القديم يفتقد وحدة الموضوع ، وبعض القصائد الحديثة لا موضوع لها ولا وحدة ، ويعيبون اختصار التجاريب الكاملة في ابيات مفردة ، وقصائد محدثة تضغط في كلمات وليس في أبيات تلك التجاريب ! ويظن قسم من محبي القديم ان الشعر الحديث يفتقر الى الوزن والقافية ، وهم لا يعرفون أوليات علم العروض ، ويتسم بالغموض وهم لا يفهمون الا الواضح المباشر السهل ولا يحبون من التعابير الا جملا مكونة من مبتدأ وخبر تضم في طياتها بديهيات معروفة لدى الجميع .

وهكذا نستطيع ان نوازن بين الطرفين وان نخرجهما خاسرين ، ولكن القضية ليست براعة الفاظ في موازنة او قوة عضلات ثقافية في جدال او مباراة فيها غالب ومغلوب ، المسألة تكمن في الذوق الادبي الشخصي وما يتبعه من مزاج وثقافة وفكر وموقف ، وهو يلغي كل المعارك التي قامت وتقوم حول قديم وحديث ، ويقف سدا منيعا ضد علمية النقد وثبوت قواعده ، فليس هناك منحى واحد سائد في عالم الفن ولا يحق لاي كبير ان يفرض رأيه الشخصي قاعدة لا نقيض لها .

لا يعدو ما فعله الشعراء المحدثون نظم قصائد تنوع القوافي وتلتزم بالوزن دون العدد الثابت من التفعيلات ، بموضوعات جديدة يتسم قسم منها بالاصالة ، والاعمال المتكاملة الرائعة قليلة ، ولم تتطور القصيدة الحديثة ، الا في النادر ، طِيلة ربع قرن من الزمن الى مسرحية شعرية حقيقية ذات حدث درامي لا تقطع الشعر الغنائي حوارا ، او الى اجواء شعرية خاصة ، قصصية او غير قصصية ، يظهر فيها الشاعر ، ككل ، بتجربته ، بمعاناته ، بأفكاره وانسانيته ، لا ان يقدم لنا وجوده صفحة بعد صفحة قصائد مبعثرة في مجلات وجرائد ، او مجموعة دون رابط في دواوين ، نريد ان يلم الشاعر نفسه وان يبرزها قائمة بذاتها ، مستقلة ، متمثلة في اعمال ادبية متكاملة ، فهل ننتظر ربع قرن آخر ليتم التجاوز ؟ وما اسباب هذا الركود في امر من مقوماته التجدد والتطور ؟

اظن ان الانبهار بهذا الشعر الحديث ما زال سائدا ، وان قسما كبيرا مما كتب عنه قد شوه قضيته ! ودون ان نحل التأمل مكان الانشداه والتطلع محل القناعة ، ستبقى القضية سائبة ، وتظل اعيننا مشدودة الى الاعمال الادبية العالمية الكاملة دون ان نسهم فيها لان محاولاتنا تجزيء هذا الاسهام في قصائد عديدة نود ان يبلورها صاحبها، الشاعر المحدث ، اعمالا ادبية متماسكة تمثله ككل فردا في جيل وشاعرا في امة وخالدا في العالمين . ولسنا نريد من الشعراء ان يكفوا عن نظم القصائد المفردة ، ولكنها دعوة الى تطوير بعض تلك القصائد الى عوالم شعرية متكاملة تتخذ لها اشكالا متجددة . وسبق لي ان عرضت هذا الرأي مفصلا بمقال في « الآداب » (١ ـ ٦٨) ، وقلت : « ادت القصيدة الواحدة دورها بنجاح واستغرقت اكثر مما يقتضيه ذلك الدور ... وهي ما زالت البذرة الاولى للعمل المتكامل السامق الذي يظل الناس جميعا تحت افيائه ، وستبقى المتنفس الاول لشاعرنا المتمرد ـ المقيد الذي لا يستطيع ان يعبر عن مشاعره بطريقة مباشرة ... واصبح للقصيدة الحديثة مناخ فريد ، ونات كثيرا وحلقت وصعدت وتبدو نهايتها غامضة اذا لم تعد وتنبسط بتوقيت حاذق وتتخذ لها اشكالا من العمل المتكامل » .

ولعل الحديث عن الشكل قد استنفد اكثر طاقات الكتاب ، وبقي المضمون امرا اهم بكثير من نظام شطري او غير شطري او من تفعيلات ثابتة او متغيرة ومن قافية او قوافٍ متعددة ، فأروع ما فعله الشعراء المحدثون هو تحول الاغراض التقليدية الى الافكار والموضوعات المطلقة التي يتناولها الشاعر في قصائده ، ويمكننا ان نقسم ديوان الرصافي او شوقي الى وصف ورثاء وغزل ... الخ ، ولكننا لا نستطيع ان نفعل الشيء ذاته في دواوين البياتي والسياب مثلا ، فالموضوع الشعري اصبح اوسع واشمل تبعا لمتطلبات العصر ، واعمق وادل على اغوار النفس البشرية وتمردها وثوريتها ، ولم يعد الشعر ، كل الشعر ، غنائيا ـ وجدانيا ، واصبح خضوع الشاعر للاغراض المعروفة مرفوضا، وتفسيره بالمدارس الادبية التقليدية خرافة ، فالشعر الحديث كلاسيكي ورومانسي معا ، وواقعي ورمزي ايضا ، فحصر الشعر بالاغراض والمدارس الادبية امر يخالف طبيعة الشعر ، لانه يعبر عن الذات البشرية التي تضيق بالتحديد . والتغيير في المضمون الحديث وابتعاده عن الوضوح الساذج طرأ لعوامل منها : ثراء التجربة الانسانية عند الشاعر واشراك القارىء في تمثل تلك التجربة وفهم الجو الشعري وما توحيه الكلمات من ظلال ، الا ان هذا الاتجاه لا يبرر افتعال الغموض عند بعض الشعراء تطلعا الى ابداع متوهم ، او النظم في موضوعات غير مستمدة من واقع الشاعر الحقيقي ، فالصدق الادبي والاصالة والاخلاص للكلمة سمات الفنان الذي تنهض موضوعاته من واقع حي او يبتعثها تصور فذ لاحياء واقع امثل .

في سنة ١٩٤٧ وفي الاعوام القليلة التي تلتها بذلت نازك الملائكة جهدا رائعا في التنبيه الى الاسلوب الجديد ، وكانت مع السياب ، تتقدمهم كل المحاولات القديمة والحديثة ، ركيزة الثورة الشعرية على القوالب التقليدية ، مع الالتزام بالاصول العروضية التي وضع قواعدها الخليل بن احمد ، ولكنها بمرور الايام ، ولاسباب قد تبدو معقدة ، منها اصرار على ريادة وتوجيه دائمين ، كما يرى بعض الكتاب، تنكرت للاساليب الجديدة ، واهتمت بالشكل اهتماما بالغا ، ولم تدعم الشعراء المحدثين ، وكادت تجردهم من نبل القصد وشرف المحاولة ، وعادت الشاعرة الى الاساليب القديمة وانحسرت عن التيارات المعاصرة ، الا ان دورها الاول لا يجحده الباحثون والدارسون .

وبدا السياب رائدا واستاذا وكائنا خرافيا ، جمع ما استطاع ان يحصل عليه من قديم وحديث ومن اسطورة وواقع ومزج ذلك كله

في قصائد انتزعت الركود من عالم الشعر الذي كان مشدودا الى النماذج الخطابية ، ونبهت القراء الى آفاق جديدة وبهرتهم بجمل كلاسيكية هادرة تلبست بالحداثة احيانا ، ولكن بعض مطولاته كالومس العمياء وحفار القبور اقتربت من الاعمال المتكاملة بمسحة درامية ، لو اتيح للشاعر تطويرها لاستطاع ان يقدم لنا آثارا يمكن ان نزحم بها التدفق الادبي العالمي ، الا ان ظروفه الشخصية والاحداث والامراض التي توالت عليه منعته من ذلك وجعلته ينصرف الى مقطوعات شعرية تفصح عن شكواه وضعفه ومرارة أيامه وقسوة الالام الجسدية التي أرهقته . كان ثرّ العطاء حتى آخر ايامه ، وسيبقى شعره ظاهرة وعلامة ودليلا ، ومقروءا في ترجمات عديدة ، يثير الاعجاب ويخطو بالشعر العربي خطوات واسعة نحو العالمية .

ويطلع علينا عبد الوهاب البياتي بجملة شعرية جديدة وغير معهودة تفصح عن اصالة هذا الشاعر ، ورؤياه الواضحة ودأبه المستمر ، ويسوح البياتي ، بنفسه ، في بقاع متعددة من هذا العالم غريبا او عاشقا للاغتراب ، وبفكره ، متمثلا او باحثا عن موضوعات لقصائده ، وبمرور السنين يتطور شعره من التزام او ما يشبه الالتزام الى مستوى انساني يكون الالتزام القديم جزءا من مداره ، فهو لا يتنكر تماما لتطلعاته الاولى، وبالرغم من « محاكمة في نيسابور » وبعض القصائد التي تتخذ لها دورات شعرية مطولة مثل قصائد : حب لعشتار ، وعذاب الحلاج ، ومحنة ابي العلاء وغيرها ، الا ان الشاعر لم يحاول ان يستغل قدرته الهائلة في اداء مسرحي او في عمل شعري آخر يمثل كيانا وجوا واحدا لا يجزىء ، او انه غير مقتنع بهذا الاتجاه ، ويبقى البياتي شاعرا كبيرا وأحد القلائل الذين جعلوا القارىء يثق بمستقبل الاشكال الشعرية الجديدة واستمراريتها .

وهناك صوت عراقي آخر ، يمثله سعدي يوسف ، كان وما يزال يعد بشاعرية فذة ، ويبدو ان الظروف فرضت انقطاعه عن الشعر احيانا ، ولا شك ان القصيدة ـ المسرحية التي مال الشاعر الى كتابتها مؤخرا قد تؤدي به الى اعمال شعرية متميزة ، ان تمثلت فيها أصالة شعره الحقيقية ، وهو من الذين مزجوا الرومانسية بالواقع والوعي بالحلم وخرجوا عن طوق شوقي ـ علي محمود طه ، وتهويمات شعر المهاجر وتأملاته السائبة .

وليس من شأن هذه المقالة ان تقدم تفصيلات اكثر او ان تستمر في ذكر الشعراء الذين اسهموا في النهضة الشعرية واحدا بعد واحد ، في العراق وغير العراق ، فمقالات كثيرة كتبت وتكتب عنهم ، والحديث عن الشعراء الذين جاءوا بعد السياب ورهطه قد يستكمل مقوماته في مقالة ثانية ، وأعتقد ان الشعر العربي ، بالرغم من كل المناقشات والمعارك الجانبية ، سائر الى التطور والنماء والاعمال المتكاملة بشكل يدعو الى التفاؤل والثقة .

بغداد ـ كلية الاداب — **جلال الخياط**

دار الآداب تقدم

الثقافة والثورة

مقالات في النقد

بقلم
محمود أمين العالم

« طوال العشرين سنة الماضية ، احتدم في الوطن العربي كله صراع حول نظرية في النقد الادبي او النقد الثقافي بوجه عام ، كان مداره طبيعة العلاقة بين الثقافة ـ من ادب وفن وفكر ـ وبين متطلبات الثورة التحريرية والاجتماعية والقومية . على انه ـ في الحقيقة ـ كان تعبيرا عن صراع اعمق ، هو الصراع الطبقي في مجتمعاتنا العربية كلها ..

... ولعل هذا ما دعاني الى التفكير في تجميع طائفة متنوعة من المقالات شاركت بها في هذا الصراع تحديدا لملامح تلك النظرية النقدية التي ليست هي ـ ببساطة ـ الا دعوة الى تنمية الثقافة الثورية العربية باعتبارها امتدادا وتطويرا لاشرف ما في تراثنا القومي العريق والى التعجيل بثورة ثقافية جذرية ، تعمق ثورة التحرير والاشتراكية والوحدة القومية ، وتعيد بناء الانسان العربي بناء حضاريا جديدا ، ثمر منقطع عن اشرف ما في تراثه القديم ، غير معزول عن حقائق مجتمعه وعصره . انها دعوة الى توظيف الثقافة توظيفا ثوريا في حياتنا ، دعوة الى التخطيط الثقافي بما لا يتناقض مع جمالية الابداع وذاتية الخلق وحرية التعبير ..»

من مقدمة المؤلف

صدر حديثا — **الثمن ٥٠٠ ق.ل**